ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمس مئة

ففيها توفي بهاء الدين قَرَاقُوش الأسدي[١]، وقيل: إنَّه لم يكن مملوكاً لأسد الدين، وإنما كان لابن الطقطقي، فَصَحِبَ أسدَ الدين، وتقدَّم عنده بعد وفاة سيده.

وفيها كانت حوادثُ [كثيرة][٢] عظيمة، منها هبوطُ نيل مِصْرَ إلى أن بقي منه شيء يسير، واشتدَّ الغلاء والوباء بمصر، فهربَ النَّاس إلى المغرب والحجاز واليمن والشَّام تفرُّقَ أيدي سبأ، ومزَّقُوا كل ممزَّق أعظم من سنة اثنتين وستين وأربع مئة في أيام الملقب بالمستنصر بن الظَّاهر بن الحاكم أحد الخُلَفاء المِصْريين، فإنَّ النَّاسَ في هذه السنة كان الرَّجل يذبح ولده الصَّغير، وتساعده أمه على طبخه وَشَيِّه، وأحرق السلطانُ جماعةً فعلوا ذلك ولم ينتهوا. وكان الرجل يدعو صديقه وأحبَّ النَّاس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله، وفعلوا كذلك بالأطباء، كانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم، وفقدت الميتات والجيف من كثرة ما أكلوها. وكانوا يَخْطَفون الصِّبيان من الشَّوارع فيأكلونهم، وكَفَّن السُّلْطان في مُدَّة يسيرة مئتي ألف وعشرين ألفاً، وامتلأت طُرُقات المغرب والحجاز والشام برمم النَّاس، وصَلَّى إمام جامع الإسكندرية في يومٍ على سبع مئة جِنازة.

٢٠ قال العِز بن تاج الأمناء[٣]: كان اشتداد الغلاء والوباء بالديار المصرية من

(١) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٥٩٦ هـ)، التكملة للمنذري: ١/ ٣٨٩، كتاب الروضتين: ٤/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥، وفيات الأعيان: ٤/ ٩١ ـ ٩٢، العبر للذهبي: ٤/ ٢٩٨، السلوك للمقريزي: ج١/ق١/ ١٥٨، النجوم الزاهرة: ٦/ ١٧٦ ـ ١٧٨، شذرات الذهب: ٤/ ٣٣١ ـ ٣٣٢، وقد سلفت أخباره في «كتاب الروضتين».

(٢) ما بين حاصرتين من (ع) و(ك) و(س).

(٣) في (ع) و(ك) و(س): تداخل قول العز بن تاج الأمناء مع قول سبط ابن الجوزي.

شهر رمضان بحيث بلغ ثمن الإرْدَب[١] ستة دنانير مصرية، وجلا أهل الأعمال، وصار إلى بلاد الفرنج منهم جمع حُملوا إلى الجزائر البحرية، وأقرَّ كثير ممن تفرَّق في البلاد الإسلامية بالعبودية لمن يؤويه ويطعمه، وأشرفت الأعمال المصرية على الخراب الكلي لولا تدارك لطف الله تعالى بإجراء نيلها والإسعاد بما كان للملك العادل فيها من الغلال التي صرفها في تقاوي البلاد ومؤن أهلها إعانةً وصدقةً، فتماسك من كان مقيماً بها، وتراجع إليها من قدر على الرجوع من أهلها.

قال أبو المظفر: وجاءت في شعبان زلزلة[٢] هائلة من الصَّعيد، فعمَّتِ الدنيا في ساعةٍ واحدة هدمت بنيان مِصْر، فمات تحت الهدم خَلْقٌ كثير، ثم امتدَّت إلى الشَّام والسَّاحل، فهدمت مدينة نابلس فلم يبق فيها جدارٌ قائم إلا حارة السمرة، ومات تحتَ الهَدْم ثلاثون ألفاً، وهدمت عكَّا، وصور وجميع قلاع السَّاحل[٣]، وامتدَّتْ إلى دمشق، فَرَمَتْ بعض المنارة الشَّرْقية بجامع دمشق، وأكثر الكلَّاسة، والبيمارَسْتان النُّوري، وعامة دور دمشق إلا القليل،

(١) مكيال لأهل مصر، قيل: يضم أربعة وعشرين صاعاً. «اللسان» (ردب).

(٢) خبر الزلزلة هذه أوردها سبط ابن الجوزي في «المرآة» في حوادث سنة (٥٩٧ هـ) ـ وعنه نقل أبو شامة ـ وابن الأثير في «الكامل»: ١٢/ ١٧٠ ـ ١٧١، والذهبي في «العبر»: ٤/ ٢٩٦، وفي «السير»: ٢٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

وقد أعاد أبو شامة ذكرها في حوادث سنة (٥٩٨ هـ) نقلاً عن العز بن تاج الأمناء، وكذلك ذكرها في هذه السنة عبد اللطيف البغدادي في كتابه «الإفادة والاعتبار»: ٥٩ ـ ٦٠.

وقد خَطَّأ الذهبيُّ العِزَّ في ذكر الزلزلة في هذه السنة، فقال في «السير»: ٢٢/ ٢٢٢: وأرخ العز النسابة خبر الزلزلة فيها (يعني سنة ٥٩٨ هـ) فوهم.

وذِكْرُ أبي شامة خبرها في السنتين دليل على أنه لم يرجح أياً منهما.

(٣) نسب الذهبي في «السير»: ٢٢/ ٢٢٠ هذا الخبر خطأً لأبي شامة، وقال: وهذه مجازفة ظاهرة.

قلت: وليست هذه هي المرة الوحيدة التي ينسب الذهبي فيها أخباراً لأبي شامة، وهي لسبط ابن الجوزي، انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٣ من الجزء الثاني.

وهَرَبَ النَّاسُ إلى الميادين، وسقَطَ من الجامع ست عشرة شرفة، وتشقَّقَتْ قُبَّة النَّسْر، وتهدَّمت بانياس وهُونين وتِبْنين، وخرج قوم من بَعْلَبَكَّ يجنون الرِّيباس[١] من جبل لبنان، فالتقى عليهم الجبلان، فماتوا بأَسْرِهم، وتهدَّمت قلعة بعلبك مع عِظَم حِجارتها ووثيق عمارتها، وامتدَّت إلى حمص، وحماة، وحلب، والعواصم، وقطعتِ البحرَ إلى قُبرص، وانفرق البحر فصار أطواداً، وقذف بالمراكب إلى السَّاحل فتكسَّرت، ثم امتدَّت إلى خِلاط، وأرمينية، وأَذْرَبيجان، والجزيرة، وأُحصي مَنْ هَلَكَ في هذه السنة على سبيل التقريب فكان ألف ألف إنسان ومئة ألف إنسان، وكان قوة الزلزلة في مبدأ الأمر بمقدار ما يقرأ الإنسان سورة الكهف، ثم دامت بعد ذلك أياماً. نقلتُ جميعَ ذلك من تاريخ أبي المُظَفَّر سِبْط الجَوْزي رحمه الله[٢].

قال: وفي مستهل ذي القَعْدَة حُوصرت دمشق؛ جاء الأفضل، والظَّاهر وكان[٣] العادل بمِصْر، وجاء حُسام الدِّين بشارة من بانياس نجدةً لهما، فقاتلوا دمشق أياماً، وكان بها المُعَظَّم عيسى بنُ العادل، وبلغ العادل، فجاءه فنزل نابلس، وبَعَثَ فأصلح الأمراء، وزَحَف الأفضلُ والظَّاهرُ، فوصلوا إلى باب الفراديس، وأحرقوا فندق تقي الدِّين، وقاتلهم المعظم، وحَفِظَ البلد، فأقاموا نحو شهرين. وبعث العادل فأوقع الخُلْف بين الأخوين، فرحلوا سَلْخ ذي الحِجَّة، وجاء العادل فدخل دمشق، ومضى المعظم وشركس وقراجا، فحاصروا بانياس وبها حُسام الدِّين بشارة، فقاتلهم فَقُتِلَ ولدهُ، وأخرجوه من البلاد وتسلَّمها شركس، وتسلَّم قراجا صَرْخَد.

وحَجَّ بالنَّاس طاشْتِكِين، وكان الخليفةُ قد أفرج عنه، وردَّ إليه إقطاعه وماله[٤].

---

(١) الريباس: نبت كانوا يتداوون به من الحصبة. انظر «القاموس المحيط»: (ربس).

(٢) «مرآة الزمان» (حوادث سنة ٥٩٧ هـ).

(٣) من هنا اضطربت أوراق الأصل، وقد أعدناها إلى حاق موضعها.

(٤) مرآة الزمان (حوادث سنة ٥٩٧ هـ).

وفيها توفي عِزُّ الدين إبراهيم ابنُ المُقَدَّم[١]، وكان شجاعاً عاقلاً، وله قلعة بارين، وفامية، ومَنْبِج، والراوندان، ودُفِنَ بدمشق بمقبرته خارج العُقيبة، بمقبرة باب الفراديس. وكان له بناتٌ، وأبوه هو المقتول بعرفات[٢].

وفيها توفي ناظر نهر الملك ببغداد، واسمه إبراهيم بن محمد بن إبراهيم[٣] ـ وكان متزهداً يَلْبَس القُطْن الفوط، ويعدل في الرَّعية، ويحسنُ إليهم ـ أمر الخليفةُ النَّاصر بصَلْبه، فَصُلِبَ على كرسي جسر بغداد، وعليه القميص الفوط على جانب نهر عيسى، فمرَّ به الخليفةُ وهو مصلوبٌ في وسط الجِذْع. فقال: تَتَنَمَّسُ علينا، ارفعوه إلى رأس الجِذْع. وكان شيخاً مهيباً، وحَزِنَ النَّاسُ عليه.

وقبل ذلك في سنة ست وثمانين [جرت][٤] واقعة أبشع من هذه، كان ببغداد عبد الرَّشيد بن عبد الرَّزَّاق الكُرْجي[٥] ـ بالجيم ـ الصُّوفي يتفقَّه بدار ٢١
الذهب. وكان وَرِعاً عاملاً عابداً، وكان ببغداد صوفي يقال له النَّفيس، يضحك منه ويسخر به، وكان يدخل على الخليفة، فدخل يوماً مدرسة دار الذَّهب، فجعل يتمسخر، فقال له الكرجي: اتق الله، نحن نبحث في العلم، وأنت تَهْزِل؟ ما هذا موضعه. فدخل على الخليفة، وبكى بين يديه، وقال: ضربني الكُرْجي وعَيَّرني. فغضب الخليفةُ وأمر بصلبه، فأُخرج وعليه ثوب أزرق من ثياب الصُّوفية إلى الرَّحبة، ونصبوا له خشبةً ليصلبوه. فقال: دعوني أصلِّي ركعتين. فصَلَّى وصلبوه، فجاء خادمٌ من عند الخليفة فقال: لا تصلبوه. وقد فات، فلعن النَّاسُ النفيسَ الصُّوفي، وبقي أياماً لا يتجاسر يظهر ببغداد، ورأى

---

(١) له ترجمة في مرآة الزمان: (وفيات سنة ٥٩٧ هـ)، وكتاب الروضتين: ٤/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤، والوافي بالوفيات: ٦/ ١٣٧.

(٢) انظر «كتاب الروضتين»: ٣/ ٤٢٣ ـ ٤٢٦.

(٣) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٥٩٧ هـ).

(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

(٥) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٥٨٦ هـ).

الكرجيَّ بعضُ الصَّالحين في المنام، فقال: ما فعل الله بك؟ فقال: وقفني الحقُّ بين يديه، فقلتُ: يا إلهي، رضيتَ ما جرى عليَّ؟ فقال. أَوَ ما سَمِعْتَ ما قلتُ في كتابي ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية[1]. أي إني أردتُ أن تصل إلى مرتبة الشُّهداء.

وفيها توفي الشيخ أبو الفرج ابنُ الجَوْزي الواعظ، واسمه عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حُمَّادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي[2] بن عبد الله بن القاسم بن النَّضْر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، أبو الفرج بن أبي الحسن القُرَشي التَّيْمي. وجعفر الجَوْزي منسوبٌ إلى فُرْضة من فُرَضِ البَصْرة يقال لها جوزة. وفرضة النهر ثلمته التي يُسْتقى منها.

قال سِبْطه أبو المظفر: ولد جَدِّي ببغداد بدرب حبيب في سنة عشر وخمس مئة تقريباً، وتوفي أبوه وله ثلاث سنين. وكانت له عمةٌ صالحة، وكان أهله تجاراً في النُّحاس ـ ولهذا رأيتُ في بعض سماعاته: وكتبَ عبدُ الرحمن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) له ترجمة في خريدة القصر، قسم شعراء العراق: مج١/ج٣/ ٢٦٠ ـ ٢٦٥، رحلة ابن جبير: ٢٧١ ـ ٢٧٧، الكامل: ١٢/ ١٧١، مرآة الزمان (وفيات سنة ٥٩٧ هـ)، التكملة للمنذري: ١/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥، مشيخة النعال: ١٤٠ ـ ١٤٢، وفيات الأعيان: ٣/ ١٤٠ ـ ١٤٢، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١٠١، طبقات علماء الحديث: ٤/ ١١٩ ـ ١٢٢، سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٦٥ ـ ٣٨٤، العبر للذهبي: ٤/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨، تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٣٤٢، المختصر المحتاج إليه: ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٨، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: ٢٨٤، الوافي بالوفيات: ١٨/ ١٨٦ ـ ١٩٤، البداية والنهاية (وفيات سنة ٥٩٧ هـ)، ذيل طبقات الحنابلة: ١/ ٣٩٩ ـ ٤٣٣، غاية النهاية: ١/ ٣٧٥، النجوم الزاهرة: ٦/ ١٧٤ ـ ١٧٦، المقصد الأرشد: ٢/ ٩٣، المنهج الأحمد: ٤/ ١١ ـ ٤٢، طبقات المفسرين للداودي: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٤، شذرات الذهب: ٤/ ٣٢٩ ـ ٣٣١.

الصَّفَّار[١] ـ فلمَّا ترعرع حَمَلَتْه عَمَّتُه إلى مسجد أبي الفَضْل بن ناصر، فاعتنى به، وأسمعه الحديث، وقرأ القرآن، وتفقه. وقد ذكر مِنْ مشايخه في «المشيخة»[٢] نيفاً وثمانين شيخاً. وعني بأمره شيخُه ابنُ الزَّاغوني، وعلَّمه الوعظ، واشتغل بفنون العلم، وأخذ اللغة عن أبي منصور الجواليقي، وصنَّف الكُتُبَ في فنون، قيل: بلغت مصنفاته نحو ثلاث مئة مصنف، وحضر مجالِسَهُ الخلفاءُ، والوزراء والأمراء، والعلماء، والأعيان، وأَقلّ ما كان يحضر مجلِسَهُ عشرةُ آلاف، وربما حضر عنده مئة ألف. وأوقع الله له في القلوب القَبُول والهيبة. وكان زاهداً في الدُّنيا، متقلِّلاً منها. وسمعته يقول على المنبر في آخر عمره: كتبتُ بأصبعيَّ هاتين ألفي مجلَّدة، وتاب على يدي مئة ألف، وأسلم على يدي عشرة آلاف[٣] يهودي ونَصْرَاني، وكان يجلس بجامع القصر والرُّصافة، وجامع المنصور وباب بدر، وتربة أم الخليفة وغيرها، وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجامع للجُمُعة وللمجلس، وما مازحَ أحداً قطُّ، ولا لعب مع صبي،ولا أكل من جهةٍ لا يتيقَّنُ حِلَّها، وما زال على ذلك الأسلوب حتى توفَّاه الله تعالى[٤].

وقد ذكرنا محنته[٥] التي شارك[٦] بها الأنبياء، والعُلَماء، والفُضَلاء، والأولياء، وتلقى ذلك بالصَّبْر والحمد والشُّكْر.

---

(١) قوله: ولهذا رأيت في بعض سماعاته: وكتب عبد الرحمن الصفار، هو من كلام أبي شامة.

(٢) طبعت المشيخة بتحقيق الشيخ محمد محفوظ، ونشرته الشركة التونسية للتوزيع سنة ١٩٧٧. وكان السبط قد أسمعها بروايته عن جده في جبل قاسيون بدمشق سنة (٦٤٩ هـ). انظر ثبت السماع للمشيخة ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) في نسخ «مرآة الزمان» التي عندي: وأسلم على يدي عشرون ألفاً.

(٤) «مرآة الزمان» (وفيات سنة ٥٩٧ هـ).

(٥) سلفت ص ٥٧ من هذا الجزء.

(٦) في النسخ ما عدا الأصل: زاحم.

وقد أثنى عليه العلماء، فذكره أبو عبد الله محمد بنُ الدّبيثي في الذيل الذي ذَيَّله على تاريخ ابن السَّمعاني، فقال:

شيخنا الإمام، جمال الدين ابنُ الجوزي، صاحب التصانيف في فنون العِلْم من التَّفاسير، والفِقْه، والحديث، والتَّواريخ، وغير ذلك، وإليه انتهت معرفةُ الحديث وعلومه، والوقوف على صحيحه من سقيمه، وله فيه المصنَّفات من
٢٢ المسانيد والأبواب والرِّجال ومعرفة الأحاديث الواهية الموضوعة، والانقطاع والاتصال. وكان من أحسن النَّاس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً. تفقَّه على أبي بكر الدِّينوري، وقرأ الوعظ على الشريف أبي القاسم العَلَوي، وأبي الحسن ابن الزَّاغوني. وبورك له في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع النَّاس منه أكثر من أربعين سنة. وحدَّث بمصنفاته مراراً.

قال: وأنشدني بواسط لنفسه:

يا ساكِنَ الدُّنيا تأهَّبْ وانتظرْ يَوْمَ الفِرَاقِ
وأعِدَّ زاداً للرَّحيـ ـلِ فسوفَ يُحدَى بالرِّفاقِ
وابكِ الذُّنوبَ بأدْمُعٍ تَنْهَلُّ مِنْ سُحُبِ المآقي
يا مَنْ أضاعَ زمانَهُ أَرَضِيْتَ ما يفنى بباقِ

فصل

في نُتَفٍ من كلامه

قال له قائل: ما نمتُ البارحة من شوقي إلى المجلس. فقال: نَعَمْ، لأنَّك تريد أن تتفرَّج، وإنما ينبغي أن لا تنام الليلة لأجل ما سَمِعْتَ.

وقيل له: إن فلاناً أوصى عند الموت. فقال: طَيِّن سطوحه في كانون.

وقال له قائل: أيُّما أفضل، أسبِّح أم أستغفر؟ فقال: الثِّياب الوَسِخة أحوج إلى الصَّابون من البخور.

وقال في قوله عليه السلام. «أعمارُ أُمتي ما بين الستين إلى السبعين»[١]: إنما طالت أعمارُ القدماء لطول البادية، فلما شارَفَ الركب بلدَ الإقامة قيل: حُثُّوا المَطِيَّ.

ووعظ الخليفة يوماً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن تكلَّمْتُ خِفْتُ منك، وإن سكَتُّ خِفْتُ عليك، فأنا أقدِّم خوفي عليك على خوفي منك لمحبتي لدوام أيامك، إنَّ قول القائل اتق الله خيرٌ من قول القائل إنكم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم، وقد قال الحسن البَصْرِي: لئن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تبلغ المأمن خيرٌ من أن تصحَبَ أقواماً يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف. وكان عمر بنُ الخطاب يقول: إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ولم أغيِّرْه فأنا الظالم، يا أمير المؤمنين، كان يوسف عليه السَّلام لا يشبع في زمان القحط لئلا ينسى الجياع، وكان عمر يضرب بطنه عام الرَّمادة ويقول: قَرْقِرْ إنْ شِئْتَ أوْلا تقرقر، فوالله لا شبعتَ والمسلمون جياع. فتصدَّق الخليفة ـ وكان المستضيء ـ بصدقاتٍ كثيرة، وأشبع الجياع، وأطلق الحبوس.

وقال في قول فِرْعَوْن ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾[٢]: أيفتخر فرعونُ بنهرٍ ما أجراه، ما أجراه.

وقال في قصة الذين عبدوا العِجْل: لو أنَّ الله خار لهم ما خارَ لهم.

وذكر قصة معاذ بن جبل في القراءة فقال: طاب له ارتضاع ثدي التِّلاوة، فمرَّ على وجهه، فقيل له: أفتَّانٌ أنت[٣]؟ ليس الكل على طريقتك، الولد لا تعدُّ عليه الرَّضَعات إنما تعدُّ على الأجانب لإثبات نسب الرَّضَاع.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٠)، وابن ماجه (٤٢٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥١.

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥) (١٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه، وهو في مسند الإمام أحمد (١٤١٩٠).

وقال يوماً وقد طَرِبَ أهلُ المجلس: فَهِمْتُم، فَهِمْتُم.

٢٣ وسئل عن قوله ﷺ: «لأُعطينَّ الرّاية غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسوله، ويحبّه اللهُ ورسولهُ»[١]. فأعطاها علياً، فأين كان أبو بكر؟ فقال: لما كان يوم بدر قام أبو بكر ليقاتل فقال له رسول الله ﷺ: «مَتِّعنا بنفسك»[٢] ولما كان يوم خيبر سَلَّم الرَّاية إلى علي وقال له: اخرج. فقعود مَنْ قَعَدَ بالأمر كخروج من خرج بالأمر، ولكن في قوله: متعنا بنفسك، فضيلة.

وسئل: لِمَ لم ينصَّ النبيُّ ﷺ على خلافة أبي بكر؟ فأجاب: إنه قد جَرَتْ أشياء تجري مجرى النص، منها قوله: «مروا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالنَّاس»[٣] و«اقتدوا باللذين مِنْ بعدي»[٤] و«هلموا أكتب لأبي بكر كتاباً لئلا يختلف عليه المسلمون»[٥] فهذه أحاديثُ تجري مجرى النص، فهمها الخصوص غير أنَّ الرَّافضة في إخفائها كاللصوص.

قال السائل: لما قال أقيلوني ما سَمِعْنا مِثْلَ جواب عليٍّ: والله لا أقلناك. فقال: لما غاب عليٌّ عن البيعة في الأول أخلف ما فات بالمَدْح في المستقبل ليعلم السَّامع والرائي أن بيعة أبي بكر وإن كانت مِنْ ورائي فهي رأيي، ومِثْلُ

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩) ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد، وكذلك البخاري (٣٧٠٢) ومسلم (٤٤٠٧) من حديث سلمة بن الأكوع. رضي الله عنهما.

(٢) هو عند الحاكم في «المستدرك»: ٣/ ٤٧٤، ومن طريقه البيهقي في «السنن»: ٨/ ١٨٦ من رواية الواقدي عن ابن أبي الزناد وعن أبيه، وإسناده تالف.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨)، ومسلم (٤٢٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وهو في مسند الإمام أحمد (١٩٧٠٠).

(٤) هو في مسند الإمام أحمد (٢٣٢٤٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٥) أخرج مسلم (٢٣٨٧) (١١) من حديث عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أَوْلى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

ذلك الصَّدْر لا يُرَائي، وما أحسنَ استدلاله حين قال: رضيك رسولُ الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا؟

وسأل سائِلٌ: ما الذي وَقَرَ في صَدْر أبي بكر؟ فقال: قوله ليلة المِعْراج: إن كان قال فقد صَدَقَ، فله السَّبْق.

وسأل آخر: سيفُ عليٍّ نزل من السماء، فَسَعَفَةُ أبي بكر من أين؟ فقال: إنَّ سَعَفَةً[1] هُزَّتْ يومَ الرِّدَّة، فأثمرت سَبْياً جاء منه مثلُ ابنِ الحنفية لأمضى من سيوف الهِنْد.

ثم قال: يا عجباً، الرَّافضة إذا ماتَ لهم مَيْتٌ تركوا معه سَعَفة، من أين ذا الصُّلْح؟!

سأل سائل: ما معنى قوله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى مَيْت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر»[2] فقال: الميت يَقْسِمُ ماله، ويَلْبَسُ الكَفَن، وأبو بكر أخرجَ المال كلَّه وتخلَّل بالعباء.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[3] قال عليٌّ: والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزُّبير منهم.

ثم قال أبو الفرج: إذا اصطلح الخصوم، فما بال النُّظَّارة.

وقال: قال جبريل للرسول عليه السَّلام: سَلِّم على عائشة[4]. ولم يواجهها بالخطاب احتراماً لزوجها، وواجه مريم لأنه ما كان لها زوج، فمن يحترمها جبريل كيف يجوز في حَقِّها الأباطيل؟

---

(١) في (س) سعفة أبي بكر، بزيادة أبي بكر، وهي زيادة مقحمة على النص من الناسخ.

(٢) لم أجده فيما بين يدي من المصادر.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٣، وسورة الحجر، الآية: ٤٧.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢١٧) ومسلم (٢٤٤٧) (٩٠) من حديث عائشة أن النبي ﷺ قال لها: يا عائشة، هذا جبريل يقرأ عليك السلام، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى. تريد النبي ﷺ. وهذا لفظ البخاري.

وسئل عن لعنة يزيد بن معاوية. فقال: قد أجاز أحمد ابن حنبل لعنته، ونحن نقول: ما نحبه لما فعل بابن بنتِ نبينا، وحمله آل رسول الله ﷺ سبايا إلى الشَّام على أقتاب الجمال، وتجرئه على الله ورسوله، فإن رضيتم بهذه المصالحة في قولنا: ما نحبه، وإلا رجعنا إلى أصْل الدَّعوى، يعني جواز لعنته. ثم قال: أما أبوه ففي خِفَارة الصُّحبة، فدعوه من أيديكم وأنتم في حِلٍّ من الابن. قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «من دَخَلَ دار أبي سُفْيان فهو آمن»[1] وما رآها يزيد قطُّ، ودخلها معاوية.

ثم قال: لا تدنِّسوا وقتنا بذكر من ضَرَبَ بالقضيب ثنايا كان رسولُ الله ﷺ يُقَبِّلُها، فجعلها يزيد غَرَضاً لبلوغ غَرَضه.

٢٤ قلت: كان أبو الفرج رحمه الله مُبْتَلًى بالكلام في مثل هذه الأشياء لكثرة الرَّافضة ببغداد، وتعنُّتهم له في السؤالات فيها، فكان بصيراً بالخروج منها بحسن إشاراته.

وذكر يوماً حديث داود وهبة آدم له من عمره ستين سنة، وأنَّ الله تعالى أتمَّ لداود مئة ولآدم ألفاً[2]. ثم قال: المتوسِّطُ بين اثنين إذا كان كريماً غَرِمَ.

ولأبي الفرج أشعارٌ كثيرة، قيل: إنها نحو عشر مجلَّدات، وقد ذكره العماد الكاتب في «الخريدة» وأثنى عليه، فمن الأشعار المنسوبة إليه:

يا صاحبي إن كنتَ لي أو معي ... فَعُجْ على وادي الحِمَى نَرْتَعِ
وسَلْ عن الوادي وسُكَّانه ... وانْشُدْ فؤادي في رُبا المَجْمَعِ
حَيٍّ كثيب الرَّمْلِ رَمْلِ الحِمَى ... وَقِفْ وسَلِّمْ لي على لَعْلَعِ
واسْمَعْ حديثاً قد رَوَتْهُ الصَّبا ... تسنده عن بانة الأَجْرَعِ

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠)، وأحمد (٧٩٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، وأبو يعلى (٦٦٥٤)، والحاكم ٢/ ٣٢٥ من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وابكِ فما في العين مِنْ فَضْلَةٍ ... وَنُبْ فَدَتْكَ النَّفْسُ عن مَدْمَعي
وانزلْ على الشِّيْحِ بواديهمُ ... وَقُلْ ديارَ الظَّاعنين اسْمَعي[1]
رفْقاً بنِضْوٍ قد بَرَاه الأسى ... يا عاذلي لو كان قلبي معي
لهفي على طيبِ ليالٍ خَلَتْ ... عُودي تعودي مُذْنَفاً قد نُعي
إذا تذكَّرْتُ زماناً مَضَى ... فويحَ أجفانيَ مِنْ مَدْمَعي
يا نفسُ كم أتلو حديثَ المُنَى ... ضاعَ زماني بالمُنى فاقْطَعي

ومنها:

في شُغُلٍ عنِ الرُّقادِ شاغِلِ ... مَنْ هاجَهُ البَرْقُ بسَفْحِ عاقلِ
يا صاحبي هذي ديارُ رَبْعهم ... قد أَخْبَرَتْ شمائلَ الشمائِلِ
واطَّرَبي إذا رأيتُ أرْضَهُمْ ... هذا وفيها رُمِيَتْ مقاتلي
ما للصَّبا مولعةً بذي الصِّبا ... أوْصَيِّباً فوقَ الغَرَامِ القاتلِ
ما للهوى العُذْري في بلادِنا ... أين العُذَيْبُ مِنْ قصور بابلِ
يا بانةَ الشِّيْحِ سُقِيْتِ أدْمُعي ... ولا ابْتُلِيْتِ بالهوى تمايلي
ميلكَ عن زَهْوٍ وميلي عن أسىً ... ما طَرَبُ المخمورِ مِثْلُ الثَّاكل
لله دَرُّ العَيْشِ في ظلالهم ... ولَّى وكَمْ أسأر في المفاصِلِ

ومنها:

تَمَلَّكُوا واحتكموا ... وصارَ قلبي لَهُمُ
تصرَّفوا في مُلْكهم ... فلا يُقَال ظلموا
إنْ واصلوا مَحبَّهم ... أو قطعوا فَهُمْ هُمُ
اصْبِرْ لما شاؤوا وإنْ ... ساء الذي قد حكموا
يا أرضَ سَلْعٍ خَبِّري ... وحَدِّثيني عنهمُ ٢٥

(١) في «مرآة الزمان»: واشمم عسيب البلد الأبقع.

يـا لـيـتَ شِـعْـري إذ غَـدوا أأنْـجَـدُوا أم أتْـهَـمُـوا
تـشـتـاقُـهُـمْ أرضُ مِـنـى وتـشـتـكـيـهـمْ زَمْـزَمُ

فصل

في وفاة أبي الفرج رحمه الله

جلس يوم السبت سابع شهر رمضان تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي. قال سِبْطُهُ أبو المُظَفَّر: وكنتُ حاضراً، فأنشد أبياتاً قطع عليها المجلس، وهي:

الـلـهَ أسـألُ أن يـطـوِّلَ مُـدَّتـي وأنـال بـالإنـعـام مـا فـي نِـيَّـتـي
لي هِـمَّةٌ في العِلْم ما مِنْ مِثْلها وهي التي جَنَتِ النُّحولَ هيَ التي
خُلِقَتْ من القلقِ العظيم إلى المُنى دُعِيَتْ إلى نَيْلِ الكمالِ فَلَبَّتِ
كم كان لي من مجلس لو شُبِّهَتْ حالاتُهُ لتشبَّهَتْ بالجَنَّةِ
اشْتاقُهُ لـمَّا مَضَتْ أيَّامُهُ عَطَلاً وتُعْذَرُ ناقةٌ إنْ حَنَّتِ
يا هَلْ لليلاتٍ بجَمْعٍ عودةٌ أمْ هَلْ إلى وادي مِنًى مِنْ نَظْرَةِ
قد كانَ أحلى من تصاريفِ الصَّبا ومن الحَمَامِ مُغَنِّياً في الأيْكَةِ
فيه البديهاتُ التي ما نالها خَلْقٌ بغيرِ مُخمَّرٍ ومُبَيَّتِ
برَجَاحةٍ وفَصَاحةٍ وملاحةٍ يقضي لها عدنانُ بالعربيةِ
وبلاغةٍ وبراعةٍ ويراعةٍ ظَنَّ النَّباتي أنَّها لم تَنْبُتِ
وإشارةٍ تُبكي الجُنَيدَ وصَحْبَهُ في رِقَّةٍ ما قالها ذو الرُّمَّةِ

قلت: أظنُّ هذه الأبيات كان نظمها في أيام محنته إذ كان محبوساً بواسط، فمعانيها دالَّةٌ على ذلك، والله أعلم.

ثم قال أبو المظفر: ونزل من المنبر فمرِضَ خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة

بين العشاءين في داره بقَطُفْتا[1]، قال: وحكتْ لي والدتي ـ رحمها الله ـ أنها سمعته يقول قُبيل موته: أيش أعمل بطواويس ـ يردِّدُها ـ قد جبتُمْ لي هذه الطواويس. وحَضَرَ غَسْلَه شيخُنا ضياء الدين بن سكينة وضياء الدين بن الجبير وقت السَّحَر، واجتمع أهلُ بغداد، وغُلِّقت الأسواق، وجاء أهلُ المحال، وشَدَدْنا التَّابوت بالحبال، وسَلَّمناه إليهم، فذهبوا به إلى تحت التربة مكان جلوسه، فصلَّى عليه ابنه أبو القاسم علي اتفاقاً، لأنَّ الأعيان لم يقدروا على الوصول إليه، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور، فصلُّوا عليه، وضاق بالنَّاس، وكان يوماً مشهوداً، لم يصل إلى حُفْرته عند قبر أحمد ابن حنبل إلى وقت صلاة الجمعة، وكان في تموز، وأفطر خَلْقٌ كثير ممن صَحِبَهُ، ورموا نفوسهم في خندق الطاهرية في الماء، وما وصل إلى حُفْرته من الكفن إلا قليل، وأنزل في الحفرة والمؤذِّن يقول: الله أكبر. وحَزِنَ النَّاسُ عليه حُزْناً شديداً، وبكوا بكاء كثيراً، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون الختمات بالقناديل والشموع والجماعات، ورآه تلك الليلة رجلٌ صالح في منامه وهو على منبرٍ من ياقوت مُرَصَّع بالجواهر، وهو جالسٌ في مَقْعَدِ صِدْق، والملائكةُ جُلُوس بين يديه، والحقُّ سبحانه حاضر يسمع كلامه.

قال: وأصبحنا يوم السبت عملنا عزاءه، وتكلَّمْتُ فيه، وحضر خلقٌ عظيم.

قال: ومن العجائب أنا كُنَّا جلوساً عند قبره بعد انفضاض العزاء، وإذا بخالي محيي الدين يوسف قد صَعِدَ من الشط، وخلفه تابوت، فعجبنا وقلنا: ٢٦
تُرَى مَنْ مات في الدار؟ وإذا بها خاتون أم ولد جدي والدة محيي الدين، وعهدي بها في ليلة الجمعة التي مات فيها جَدِّي في عافية، قائمة ليس بها مرض، فكان بين موتها وموته يوم وليلة، وعَدَّ الناس ذلك من كراماته، لأنه كان مغرًى بها في حال حياته.

(١) محلة كانت بالجانب الغربي من بغداد. «معجم البلدان»: ٤/ ٣٧٤.

وأوصى جدي أن يُكتب على قبره:

يـا كـثـيـرَ الـعـفـو عَـمَّـنْ كَـثُـرَ الـذَّنْـبُ لـديـه
جـاءك الـمُـذْنِـبُ يـرجـو الـصَّـفْـحَ عـن جُـرْمٍ يـديـه
أنـا ضـيـفٌ وجـزاءُ الـضَّـيـفِ إحـسـانٌ إلـيـه

وهذا البيت تضمين.

فصل
في ذكر أولاده

قال أبو المُظَفَّر: وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز ـ وهو أوَّل أولاده ـ وأبو القاسم علي، وأبو محمد يوسف. فأما عبد العزيز فكنيته أبو بكر، تفقَّه على مذهب أحمد، وسَمِعَ أبا الوقت، وابن ناصر، والأرموي، وجماعةً من مشايخ والده. وسافر إلى المَوْصِل، ووعَظَ، وحَصَلَ له القَبُول التَّام، فيقال: إن بني الشَّهْرُزوري حَسَدُوه، فَدَسُّوا إليه من سقاه السُّمَّ، فمات بالمَوْصِل سنة أربع وخمسين في حياة والده.

وأما أبو القاسم، فكتَبَ الكثير، وسَمِعَ الحديث من ابن البطِّي وغيره، وهو الذي أظهر مصنفات والده وباعها بيع العبيد فيمن يزيد، ولما مضى والده إلى واسط كانت كتبه في داره بدرب دينار، فتحيَّل عليها بالليل والنهار حتى أخذ منها ما أراد، وباعها ولا بثمن المِدَاد، وكان أبوه قد هَجَره منذ سنين، فلما امتحن أبوه صار إلْباً عليه للمعادين. وتوفي سنة ثلاثين وست مئة، وله ثمانون سنة.

وأما أبو محمد يوسف، ولقبه محيي الدين، فولد في سنة ثمانين وخمس مئة، وسمع الحديث الكثير، وتفقَّه وناظر، ونشأ على الطرائق الرَّشيدة، والخلائق الحميدة، وهو كان السبب في خلاص والده من واسط، ووعظ بعد وفاة أبيه تحت تُرْبة والدة الخليفة، وقامت بأمره أحسن قيام، ثم ولي الحِسْبة

بجانبي بغداد في سنة أربعٍ وست مئة إلى تسع وست مئة، ثم وليها من سنة خمس عشرة وست مئة[١]، وسلك طريق العقل والسَّداد، وترسَّل عن الخلفاء إلى الملوك، وأول تَرَسُّلِه عن الإمام الظاهر بن النَّاصر في سنة ثلاثٍ وعشرين وست مئة إلى أولاد العادل: الأشرف والمُعَظَّم والكامل، وآخر ما انفصل عن الشَّام في سنة خمسٍ وثلاثين وست مئة إلى بغداد. وفي تلك السنة توفي صاحب الرُّوم، والأشرف، والكامل، ثم ولي أستاذية الدار في سنة أربعين للإمام المستعصم بن المستنصر بن الظاهر.

قلت: وبقي على ذلك إلى أن قتله التَّاتار ـ لعنهم الله ـ سنة استولوا على بغداد، وهي سنةُ خمسٍ وخمسين وست مئة[٢]، مع مَنْ قتلوه من الأكابر الذين خرجوا مع الخليفة المستعصم إليهم، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى[٣].

قال أبو المظفر: وكان لجدِّي عِدَّة بنات، منهن والدتي رابعة، وشرف النِّساء، وزينب، وجوهرة، وست العلماء الكبرى، وست العلماء الصُّغْرى، ٢٧
وكلهن سَمِعْنَ الحديث مِنْ جَدِّي وغيره[٤].

وقال الشيخ أبو الفرج في كتابه «المنتظم» في أخبار سنة إحدى وسبعين وخمس مئة: وفي هذه السنة عُقِدَ عَقْد ابنتي رابعة بباب حجرة الخليفة ـ وحضَرَ قاضي القضاة والعدول والخَدَم والأكابر ـ على أبي الفَتْح بن رشيد الطبري، قال: وزوجت ابني أبا القاسم بابنة الوزير يحيى بن هُبيرة في ذلك اليوم، وكان الخاطب ابنَ المهتدي[٥].

---

(١) في (ب) و(ع) و(ك) إلى. ثم بيض لها أبو شامة.

(٢) يقصد أبو شامة أن ذلك كان في أواخرها إذ استولى التتار على بغداد في محرم سنة ٦٥٦ هـ، كما سيأتي في حوادثها، ووهم ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: ٣/ ١٤٢ بقوله: توفي في وقعة التتر قتلاً سنة ثلاث وخمسين وست مئة.!

(٣) طوى أبو شامة خبر استيلاء التاتار على بغداد بسطور قليلة، ولم يفصل فيها، انظر ص١٢٤ ـ ١٢٥ من الجزء الثاني.

(٤) مرآة الزمان (وفيات سنة ٥٩٧ هـ).

(٥) المنتظم: ١٠/ ٢٥٧.

قال أبو المظفر: هذه رابعة هي والدتي، تزوَّجها ابنُ رشيد الطبري، وهو أول أزواجها، ولم يَطُلْ عمره معها، ثم زوجها جَدِّي بوالدي بعد موت ابن رشيد. وقد سمعتِ الحديثَ على ابن البطي، وثابت بن بُنْدَار[١]، ومعظم مشايخ جدي.

قال أبو الفرج: وزُفَّتْ إلى ابن رشيد في المحرَّم سنة اثنتين وسبعين في دار الجهة بنفسا جهة الخليفة، وجَهَّزَتْها بمالٍ عظيم.

قال أبو المُظَفَّر: ما قصد جدي بهذا الكلام إلا الإعلام بمكانته وعُلُوّ منزلته عند الخليفة، وأن أحداً من أبناء جِنْسه لم يَصِلْ إلى مرتبته[٢].

فصل

وفي هذه السنة أيضاً، وهي سنةُ سبعٍ وتسعين وخمس مئة، توفي في مستهل [شهر][٣] رمضان العمادُ الكاتب[٤]، الأصفهاني، وكان كاتبَ الإنشاء في الدولتين النُّورية والصَّلاحية، وكان مبرزاً في النَّظْم والنثر، عارفاً بالأدب، حافظاً لدواوين العرب. وقد ذكرتُ له ترجمةً حسنةً في «تاريخ دمشق» في حرف الميم، وأخباره مفرَّقة أيضاً في كتابي الذي سميته «بالرَّوْضتين»، وقد ذكر هو نفسه أيضاً في كتابه الذي سَمَّاه «بالخريدة»، ومن شِعْره:

باللهِ يا ريحَ الشَّمالِ تَحمَّلي ... مني التَّحيةَ نحو ذاكَ المَنْزِلِ

---

(١) في هامش الأصل حاشية نصها: في حاشية أصله بخط البرزالي رحمه الله: صوابه يحيى بن ثابت.

قلت: انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦.

(٢) مرآة الزمان (حوادث سنة ٥٧١ هـ).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من بقية النسخ.

(٤) له ترجمة في معجم الأدباء: ١٩/ ١١ ـ ٢٨، والكامل: ١٢/ ١٧١، مرآة الزمان (وفيات سنة ٥٩٧ هـ)، التكملة للمنذري: ١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣، كتاب الروضتين: ٤/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦، وفيات =

خفيٌّ إلى حَمْلِ السَّلام وخَفِّفي عن قَلْبِ صَبٍّ بالصَّبابة مُثْقَلِ
قولي لمن شُغِلَ الفؤادُ بحبِّه ويُخال أنَّ فؤادَه منه خَلِي
حُلَّتْ عقودُ دموعِهِ وعقودُهُ وعهودُهُ معقودةٌ لم تُحْلَلِ
سُقْيا لأحبابٍ تبدَّلَ وُدُّهم بعدي ولم أنقضْ ولم أتبدَّلِ
الظَّاعنينَ ووُدُّهم مستوطِنٌ والرَّاحلينَ وذِكْرُهُمْ لم يَرْحَلِ
لي بعدَهُمْ حالُ المعنَّى المُبْتَلَى حُزْناً وعينُ السَّاهِرِ المُتَمَلْمِلِ
يا راكباً يطوي الفلا مستعجِلاً هَيَّجْتَ أحزاني فلا تَسْتَعْجِلِ
أَقْفَلْتَ بابَ مَسَرَّتي وفَتَحْتَ من دمعي وحُزْني كلَّ بابٍ مُقْفَلِ
عَرِّج وَعُجْ نحو الحِمى سُقِي الحِمى واعْدِلْ فليسَ عن الحِمَى من مَعْدِلِ

ومنه:

أيا ساكني مِصْر عفا الله عنكُمُ وعافاكُمُ مِمَّا أنا فيه منكُمُ
أبيتُ على هِجْرانكمْ متندِّماً وَمَنْ ينأ عنكُمْ كيفَ لا يتندَّمُ
فإنْ كنتمُ لم تعلموا ما لَقِيْتُهُ مِنَ الوَجْدِ والأشواقِ فالله يَعْلَمُ
بَقِيْتُمْ وعِشْتُمْ سالمين من الأذى ومُنْيَةُ قلبي أن تعيشُوا وَتَسْلَمُوا ٢٨

وفيها توفي مكلبة بن عبد الله المستنجدي[1]، وكان صالحاً يقومُ الليل، سمع المؤذِّن يقول في وقت السَّحَر في المئذنة:

= الأعيان: ٥/ ١٤٧ ـ ١٥٣، سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٤٥ ـ ٣٥٠، العبر للذهبي: ٤/ ٢٩٩، المختصر المحتاج إليه: ١/ ١٢٢ ـ ١٢٣، الوافي بالوفيات: ١/ ١٣٢ ـ ١٤٠، طبقات الشافعية للسبكي: ٦/ ١٧٨ ـ ١٨٣، طبقات الشافعية للإسنوي: ٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥، البداية والنهاية (وفيات سنة ٥٩٧ هـ)، توضيح المشتبه: ١/ ٢٦٣، حسن المحاضرة: ١/ ٥٦٤ ـ ٥٦٥، شذرات الذهب: ٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

وانظر ما كتبه العلامة محمد بهجة الأثري في ترجمته في مقدمة تحقيقه لخريدة القصر، قسم شعراء العراق: ١/ ٩ ـ ٨٠، وقد جمع ديوان شعره ناظم رشيد، وطبع في بغداد سنة ١٩٨٣ م.

(١) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٥٩٧ هـ).

يـــا رجـــالَ الـــلَّـــيْـــلِ جُـــدُّوا رُبَّ صـــــــوتٍ لا يُـــــــرَدُّ
مـــا يـــقـــومُ الـــلَّـــيْـــلَ إلا مَـــــنْ لـــــه عَـــــزْمٌ وجِـــــدُّ

فبكى مكلبةُ بكاء شديداً، وصاح: يا مؤذن زِدْني. فقال المؤذن:

قـــد مـــضـــى الـــلـــيـــلُ وولَّـــى وحـــبـــيـــبـــي قـــد تـــجـــلَّـــى

فصاح مكلبة ومات، فأصبح جميع من ببغداد على باب داره، وكان يوماً عظيماً لم يُرَ ببغداد مثله، فالسعيد من وَصَلَ إلى كفنه، وقُطِّع الكفن قِطَعاً، ودُفِنَ بالوردية.

وفيها[١] توفي أبو منصور بن نقطة المزكلش[٢]. كان يقول كان وكان[٣]. ولا يعرف الخط، وهو أخو عبد الغني بن نُقْطة الزَّاهد.

وهو عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع[٤]، كان له زاويةٌ ببغداد يأوي إليها الفقراء، وكان ديناً جَوَاداً سمحاً، لم يكن ببغداد في عَصْرِه من يقاومه في التجريد، كان يُفتح عليه قبل غروب الشمس بألف دينار فيفرِّقها، والفقراء صيام لا يدَّخِرُ لهم منها شيئاً ويقول: نحن لا نعمل بأُجرة ـ يعني لا نصوم وندخر ما نُفْطر عليه ـ وكانت والدة الخليفة الناصر تحسِنُ الظَّنَّ به، زوَّجته بجاريةٍ من

(١) من هنا ينتهي الاضطراب في أوراق الأصل.

(٢) له ترجمة في مرآة الزمان (حوادث سنة ٥٩٧هـ).

(٣) كان وكان: قالب من الشعر العامي كان في مبدأ نشأته مقصوراً على الحكايات والخرافات، ولذلك سموه «كان وكان» في بغداد، ويسميه المصريون الزكالش، انظر «الأدب في العصر الأيوبي» لمحمد زغلول سلام ص٢٨٠ ـ ٢٨٢، و«وفيات الأعيان»: ٣/ ٥٠١ حاشية د. إحسان عباس.

(٤) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٥٨٣ هـ)، والتكملة للمنذري: ١/ ٦٨ (لكن الصفحة في المطبوع منه استبدلت بغيرها خطأ)، والمختصر المحتاج إليه: ٣/ ٨٤، الوافي بالوفيات: ١٩/ ٣٣، ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ١٨٤، توضيح المشتبه: ٩/ ٢٥٠، المنهج الأحمد: ٤/ ١٩٩، شذرات الذهب: ٤/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩، ٥/ ١٣٤.
وهو والد المجد محمد صاحب كتاب «التقييد في رواة الكتب والأسانيد» المتوفى سنة ٦٢٩ هـ

خواصُها، ونقلت معها جهازاً يساوي عشرة آلاف دينار، فما حال الحول وعنده منه سوى هاون. فجاء فقيرٌ، فوقف على الباب وقال: لي ثلاثة أيام ما أكلتُ شيئاً. فأخرج إليه الهاون وقال: لا تشنِّع على الله، كُلْ بهذا ثلاثين يوماً. وتوفي عبد الغني رابع جمادى الآخرة سنة ثلاثٍ وثمانين وخمس مئة، ودفن بزاويته.

وأخوه أبو منصور بن نُقْطة المزكلش، كان ينشد كان وكان في الأسواق، ويسحِّرُ النَّاسَ في رمضان، فقيل له: أما تستحي، أخوك زاهد العراق وأنت تزكلش في الأسواق! فقال مواليا:

قد خاب مَنْ شَبَّه الجزعه إلى دُرَّه وسام قَحْبَه إلى مُسْتَحْسنه حُرَّه
أنا مغني وخَيّ زاهد إلى مَرَّه في الدَّار بيرين ذي حُلْوه وذي مُرَّه

وجرى حديث قتل عثمان، وأنَّ علياً ـ رضي الله عنهما ـ كان بالمدينة، ولم يقدر على الوصول إليه، فقال ابن نقطة:

ومن قُتِلَ في جواره مِثْلُ ابنِ عَفَّان واعتذر
يجبُ عليه أن يَقْبَلَ في الشَّام عُذْرَ يزيد

فأراد الشيعةُ قتله، فوثبوا عليه ليلة، وكان يسحر الناس في شهر رمضان، وكان الإمام النَّاصر تلك الليلة في المنظرة وهو واقفٌ يسحر، ويقول: أي نياما، قوما. قوما، السحور، قوما. فعطس الخليفة. فقال ابنُ نقطة: يا من عطس في الروزنة، يرحمكم الله قوما. فبعث إليه مئة دينار، وحماه من الشيعة، فمات بعد قليل.

وفيها توفي مُسْنِدُ الشَّام في وقته أبو طاهر، بركات بن إبراهيم بن طاهر الخُشُوعي[1]، شارك الحافظ أبا القاسم بن عساكر في كثيرٍ من شيوخه ٢٩

(١) له ترجمة في التكملة للمنذري: ١/ ٤١٩ ـ ٤٢٠، وفيات الأعيان: ١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠، سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٥٥ ـ ٣٥٨، العبر للذهبي: ٤/ ٣٠٢، البداية والنهاية (وفيات سنة ٥٩٧ هـ)، النجوم الزاهرة: ٦/ ١٨١، شذرات الذهب: ٤/ ٣٣٥. =

الدمشقيين سماعاً، والغرباء إجازة، وعَمَّر حتى ألحقَ الصِّغارَ بالكبار. أخبرنا عنه جماعة، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين [وخمس مئة][1]

والغلاء بمصر مستمر، ثم تناقص لاستقبال جُمادى الآخرة لما ظهر من زيادة نيلها، وأقلع في آخرها، ولله الحمد.

قال أبو المظفر: فيها[2] برَّز العادل إلى القُصَير طالباً حلب، وكان الأفضل بحمص عند شيركوه[2]، وهو أخو زوجته سفري ابنة ناصر الدين محمد بن شيركوه الكبير، فجاء إلى عمه العادل، فالتقاه عند ثنيَّة العقاب، فأكرمه وعَوَّضه عن مَيَّافارقين سُمَيْساط وسَرُوج، وقلعة نجم، وقرايا في المرج ومِصْر، وتسلَّم الظاهر فامية من ابنِ المقدَّم، ونزل العادل على حماة، فصالحه الظَّاهر، ورجع العادل إلى حمص.

وجاءت في شعبان زَلْزلةٌ عظيمة[3]، فشققت قلعة حمص، ورمت المنظرة التي على القلعة، وأخربت حِصْنَ الأكراد، وتعدَّت إلى جزيرة قبرس، وامتدَّت إلى نابُلُس، فأخربت ما بقي.

وقال العز بن تاج الأمناء: هذه الزلزلة العظمى التي هدمت بلادَ السَّاحل: صور، وطرابُلُس، وعِرْقة، وشعَّثتْ كثيراً من البلاد الإسلامية الشمالية. ورمت

= وقد وهم أبو شامة في ذكره في وفيات هذه السنة، وتابعه على ذلك ابن كثير في البداية والنهاية، والصواب وفاته سنة (٥٩٨ هـ) كما في مصادر ترجمته.

قال المنذري في «التكملة»: وسئل أبوه أبو إسحاق إبراهيم: لم سموا الخشوعيين؟ فقال: كان جدنا الأعلى يؤم بالناس، فتوفي في المحراب، فسمي الخشوعي.

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢-٢) ما بينهما ليس في (ع) و(ك) و(س).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٩٧ من هذا الجزء.